منهج كتابة السيرة النبوية عند مصطفى محمود

بلال أحمد يتو[1]

الملخص

مضى على الرسالة المحمدية أربعة عشر قرنا والتاريخ لا يزال متحيرا على التغيير الجذري البنيوي الذي قام به سيدنا محمد ﷺ في العالم في أقل من ثلاث وعشرين سنة وذاك في زمان غابر لا يعرف عن الحداثة شيء. وما زال المؤرخون والمفكرون يرفع أقلامهم ليفسروا هذه المعجزة الربانية ولا يزالون يفعلون. جمعت أقلام مفكري العالم كله في تفسير شخصيته ﷺ وتحريكه الإصلاحي الجاد، ولم يتخلف أدباء الغرب ومفكروها عن البحث والتمحيص والوصول إلى سر نجاح حركته ﷺ الإصلاحي في مجالات الحياة كلها، فنرى فيهم توماس كارليل: المفكر الإسكتلندي الفذ يتحدث عن ذاته الشريفة وعن تحريكه الإصلاحي وينتخبه من سائر الأنبياء بطلا ويسميه " البطل في صورة رسول"\[2] The Hero as Prophet، كما اختاره مايكل هارت على رأس القائمة في كتابه "ترتيب أكثر الشخصيات تأثيرا في التاريخ"[3]. أما العرب ومفكروها فاعتنوا عناية خاصة إلى هذا الموضوع منذ القدم، فنرى المفكرين من رجال الدين والأدباء والمصلحين الذين ركضوا أقلامهم في هذا الموضوع وأنتجوا مئات كتب تفسيرا وتحليلا لشخصية النبي ﷺ ورسالته ﷺ الخالدة. ومن هؤلاء المفكرين الأديب الفذ الدكتور مصطفى محمود. ونرى من المفيد أن نتأمل على شخصية النبي ﷺ من منظور مصطفى محمد وهو كاتب

---

١ باحث الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كشمير، سري نغر، كشمير، الهند

2 Carlyle Thomas, On Heros, Hero-Worship, and the Heroic in History,51

3 Hart Michael, The 100 A Ranking of the most influential persons in History, p3

اجتمع فيه الفكر المنطقي السوي، والإيمان الراسخ، والشهية إلى معرفة الحق والوصول إليه[1]، وهذه هي الأدوات المطلوبة في معرفة شخصية الرسول ﷺ. في هذه الورقة البحثية سنحاول أن نقدم آراء مصطفى محمود حول شخصية الرسول ﷺ وسر نجاحه في جميع مجالات الحياة.

مصطفى محمود ومحاولاته لفهم السيرة النبوية

كل من لدينا اطلاع على شخصية مصطفى محمود نعرف أنه كان منغمسا في البحث عن الحقيقة منذ نعومة أظفاره وبذل جهوده الجبارة ليبحث عن الحقيقة والمعرفة، فنراه يتخبط بين الهدى والضلال في بواكير حياته ويتحدى مبادئ الإسلام وأصوله إلى أن فتح الله قلبه للإسلام وذهبت شكوكه ووساوسه فبدأ أن ينشر علمه الراسخ وأفكاره القيمة حتى بلغ عدد كتبه ٨٩ كتابا وإضافة الى يقدم برامج تلفاز باسم العلم والإيمان حتى بلغ عدد حلقاتها ٤٠٠ حلقة[٢]. واستوى أفكاره على القيم العلمية والمحكمات العقلية والأعمدة الإيمانية والعقائد الدينة، ولم تكن مساعيه لتثبيت شيء أو رفض شيء آخر، بل الوصول إلى الحقيقة حتى قيل إنه مد الجسر بين العلم والإيمان، وأقبل عليه الجميع من الأدباء والطلاب والقراء مادحين أفكاره ومعجبين على منهجه حتى نال قبولا وتقديرا من العلماء والشيوخ وإن اعترض البعض منهم على بعض آرائه ومواقفه. وقد صنف مصطفى محمود كتابا صغيرا

---

1 https://www.almrsal.com/post/427326, محمد هدير, 19/12/2023

2D9%89-%D9%85%D8%AD%D9%85%D9%88%D8%AF-
%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%86%D8%AA%D8%B5%D8%B1-
%D8%B9%D9%84%D9%89-%D9%86%D9%81%D8%B3%D9%87 / انتصار
سليمان، مصطفى سليمان آ ٢٠٢٣/١٢/١٩

"**محمد** ﷺ " على السيرة النبوية الشريفة يبرز فيه الطريق الخاطئ -الذي أصبح منهجا جديدا لدى بعض الكتاب والعلماء في كتابة السيرة النبوية-، ويشير الى هذا المنهج المعوج ويستشهد على موقفه من بعض الأحداث التي وقعت في عصر النبي ﷺ والتي نقرأها في كتب السيرة النبوية، ومن المفيد أن نقدم الدراسة التحليلية لهذا الكتاب وفيما يأتي بيانه بالتبيان:

الفرق بين النبي والمصلح

إذا قمنا بالمقارنة بين كتب السيرة المكتوبة في الأزمنة الماضية والتي كتبت في عصرنا الحاضر فيظهر لنا الفرق الأساسي بينهما، في الأزمنة الماضية كان همّ الكتاب أن يثبتوا شخصية الرسول كشخصية أسطورية حيث يعيش حياة الملائكة في ثياب البشر، وتظهر المعجزات على يده الشريفة لحين بعد آخر، أما في العصر الحديث فتحول أسلوب الكتاب جذريا وأخذوا أن يجردوا شخصيته ﷺ من كل ما هو غيبي وما ورائي. فاجتهد منهم أحد أن يثبت أنه ﷺ كان عسكريا فذا، والآخر بذل جهوده ليثبت أنه ﷺ كان سياسيا خبيرا وهلم جرى.... وظنوا بأن طريقتهم هذه هي طريقة ملائمة لعصرنا الحديث، وهي طريقة مثلى لتقديم شخصيته الشريفة إلى الجيل الجديد، ولكنهم نسوا الطرف الروحي والغيبي من شخصيته الشريفة و قدموه كمصلح اجتماعي فحسب، وبهذه الطريقة أخطأوا في شأنه ﷺ و رسبوا في تقديمه كنموذج مثالي الذي قال عنه ربنا سبحانه وتعالى ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾[1] ويعتقد مصطفى محمود أن هؤلاء الكتاب سقطوا فريسة الكارثة الكبرى لأنهم تدبروا في شخصيته الشريفة بعيون مادية و شبهوه بالمصلحين الذين أتوا إلى الدنيا وأثروها بأفكارهم الحديثة واجتهاداتهم الجديدة لفترة من زمن،

---

١ سورة الأحزاب، ٢١

وشبهوا رسالته كحركة اجتماعية تسعى إلى تغيير المجتمع فحسب، ويغفلوا عن الربط الإلاهي الذي أمده ﷺ في كل حرب وكرب. وهنا يظهر لنا الخطأ الأساسي الجديد في فهم السيرة النبوية وهو الغوص إلى شخصيته الشريفة بأنظار مادية بحتة، وقد ظهر هذا الأسلوب عند المستشرقين أولا وتغلغل في بعض المسلمين مؤخرا. وقد حذّر مصطفى محمود من اتباع هذا الأسلوب المعوج قائلا:

"في هذا العصر ظهر لون جديد من كتب السيرة يحاول فيه الكاتب أن يجرد محمدا ﷺ من كل ما هو سماوي وغيبي..... وظن بهذا أنه خدم العقيدة، ورفع من شأن رسولها... وأنه كان يتكلم لغة العصر، ويخاطب الكافر بلغته، والحقيقة أنه لم يكن يخاطب الكافر بلغته، بل كان يصانعه ويداهنه ويتألفه بالكذب والتزييف، وينزل بنبيه إلى درك السياسيين المغامرين، ويجرده من العصمة والقداسة"[١]

قال في موضع آخر وهو يفرق بين النبي والمصلح:

" النبي جليس على المائدة الربانية يتلقى من ربه الكلمة والتشريع والتكليف... وهو معصوم لا ينطق عن الهوى، والمصلح الاجتماعي من أهل الاجتهاد مثله مثلنا، وحظه حظنا، يخطئ ويصيب، ولا عصمة له، ولا خروج من دائرة المحسوس، ولا تحليق إلا بالخيال والحدس والتخمين"[٢]

شخصيته الشريفة بين العبقرية والنبوة

---

١ محمود مصطفى، محمد، ص٨

٢ محمود مصطفى، محمد، ص٩

يقف مصطفى محمود أمام ذاته الشريفة ليلاحظها ويتدبر على رسالته الخالدة فيرى فيه آثارا وآيات لم ير في عبقري قط، فهو رجل فطري بسيط، لم يدرس في جامعة ولا يتدارس مذهبا من المذاهب ومع ذلك اجتمعت فيه كمالات بلغ في كل منها الذروة، فهو العابد المبتهل والمقاتل الصنديد، والمخطط العبقري، والسياسي الحاذق، والخطيب الراقي، وصاحب الدعوة الفذة، ومنشئ الدولة من عدم، وهو الأب الناجح، والزوج الناجح، والصديق الناجح... وهو الكريم والحليم والودود والصبور والرؤوف، وهو البسام اللطيف ... كأنه ﷺ أمة في رجل و معجزة في ذاته ﷺ الشريفة، وهنا نتوقف متحيرين على الكتاب الذين قارنوا شخصيته الشريفة بالعباقرة الذين تتفوقوا في صفة واحدة فحسب. تشابهت عليهم الأمور لأنهم أهملوا الفرق بين العبقري والنبي، فالعبقرية هي صفة مكسوبة أما النبوة فصفة موهوبة، الأول يجتهد ويخمن ويجرب فيخطئ ويصيب، ويفوق في ميدان وينزلق في ميادين متنوعة أما النبوة فليست صفة مكسوبة بل يختاره الله ويصطفاه من يشاء من عباده، والنبي لا يتخمن ولا يجتهد بل يوحى إليه العلوم والمعارف من الله سبحانه وتعالى، وبهذا السند الإلهي والمدد الغيبي يصبح النبي معجزة في ذاته و هو الذي يرافق الأصدقاء ليجعلهم عباقرة الزمن كما جعل النبي ﷺ أصحابه عباقرة الدهر ومن رأسهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فالنبي ﷺ صانع العباقرة وليس عبقريا بحتة، وكم من عباقرة دهشوا بذاته الشريفة ورسالته الخالدة!.

وعالج الدكتور مصطفى محمود في كتابه "محمد" معالجة شاملة ويركز على منهج كتابة السيرة النبوية بدلا من كتابة السيرة والسبب الوحيد وراءه هو إصلاح المنهج المعوج الذي صار موضة كتاب السيرة في عصرنا الراهن وهو يبرز هذا الخطأ المنهجي في مواضع مختلفة فمثلا يقول:

هذه الذات هي المعجزة

"واجتماع هذه الكمالات في ذات واحدة معجزة وليست عبقرية... فالعبقرية هي تتفوق في صفة واحدة وحسب... أما أن تكون ذواتنا مجمع كمالات فهنا نبوة... هنا أمر لا يمكن أن يكون إلا بمدد إلهي وعصمة وتوفيق وتمكين وإفاضة ممن عنده كنوز كل شيء"[١]

وهذا برهاني على نبوة محمد ﷺ

نحن لسنا إذن أمام أبراهام لنكون، ولا أمام جيفارا كما تصور أصحابنا قصار النظر دعاة المادية الجدلية ودعاة العلمية بلا علمية

نحن لسنا أمام مصلح اجتماعي.. ولا أمام ثورة إسبارتا كوس الاجتماعية لا، لقد هزلت تلك التشبيهات

بل ظلموا أنفسهم وظلموا نبيهم... ونقصوه وما قدروه" [٢]

محمد ﷺ صانع العباقرة

بعدما فرغنا أن نبرهن أن شخصيته الشريفة لم تكن عبقرية بحتة بل كانت جامعة العباقرة وأعلاهم وصفا ومتانة سنخطو خطوة أخرى لنكتشف معجزات ذاته الشريفة وكونه صانع العباقرة. فإذا نطالع كتب السيرة ونطوف بين سطورها متأملين على التغييرات والإصلاحات قام بها هذا النبي المحتشم في تلك الحقبة من الزمن فنتيقن أن ذاته الشريفة ليست مثلنا بل هو موهوب بالمدد الإلهي الكامن لا نراه بعيوننا الحسية ولكن نحسه بعقولنا ووجداننا. والبرهان التاريخي الذي يثبت موقفنا هو شخصية عمر رضي الله عنه، فقد اتفق المؤرخون من المسلمين و من غيرهم على أن عمر رضي الله عنه كان له دور كبير في تغيير التاريخ العالمي وإسعاد

---

١ محمود مصطفى، محمد، ص23

٢ محمود مصطفى، محمد،٢٤

القيم البشرية، ويعتبر سياساته الإدارية والحكومية مؤثرة إلى عصرنا هذا. السؤال الذي يشغل بال دارس السيرة النبوية هنا هو كيف استطاع عمر رضي الله عنه الذي كان من أكبر أعداء رسول الله في أول الأمر، أن يصبح أكبر مؤيده حتى استطاع أن يغير كيان التاريخ ووضع يده على مركزه حتى أحركه؟ هل يرشاه أحد؟ أو وجد مكسبا ومغنما عند رسول الله فهرول إليه؟ التاريخ يصرخ بملء فمه لاااا.... فما هي الإجابة إذن" المدد الغيبي من الله سبحان وتعالى وحمايته لنبيه ﷺ ومن معه" فمهما بلغنا من التفكير وبذلنا جهودا لنعرف السبب فلن نجدا إجابة مقنعة كهذه، وقد روي أن عمر رضي الله عنه قال:

"إنكم كنتم أذل الناس فأعزكم الله برسوله، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله"[١]

هاهنا يتحدث عمر عن سر نجاحه ونجاح العرب وانتصاراتهم في العالم، وأطلق مصطفى محمود على الحالات مثل هذه في السيرة النبوية مصطلح " اللمسة السحرية والمدد الإلهي، كما يقول:

"هنا سند الغيب والتوفيق والتمكين من الله لنبيه في الأرض وفي التاريخ وفي قلوب هؤلاء البدو الجفاة الغلاظ الذين يندون بناتهم أفلاذ أكبادهم ويدفنونهم أحياء في التراب. وبدون هذا السند الإلهي لا نستطيع أن نفسر أمورا ووقائع كالخيال"[٢]

اللمسة المحمدية السحرية

وخلال دراسة السيرة النبوية نتوقف على حادثة أخرى مثل حادثة عمر في

---

١ الأصفهاني أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ص٤٧

٢ محمود مصطفى، محمد، ص٣٤

غرابتها وهي حادثة أم المؤمنين صفية بنت حي بن أخطب رضي الله عنها التي قتل المسلمون أباها وأخاها وحتى زوجها (كنانة بن أبي الحقيق) وكانت عروسا له، يوم خيبر وفرقوا جمع قومها وطردوا قومها من ديارهم وأصبحت من جملة السبايا فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه وخيرها بين الإسلام واليهودية قائلا:

" اختاري فإن اخترت الإسلام أمسكك لنفسي – أي تزوجتك- وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك فقالت يا رسول اللهﷺ لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعوني" [1]

ثم تزوجها النبي ﷺ وأدخلها في حرمه، وحين نتوقف على هذه النقطة ونتأمل على موقفه ﷺ الله عليه فنتحير كل الحيرة فعقولنا المادية تقودنا إلى نتائج سلبية وعواقب وخيمة. كيف كانت مصاحبتها ومجالستها آمنة وكانت حديثة العهد بالإسلام ولم تنس موت أبيها وزوجها وأقربائها وتفرق قومها، ألم تشتعل جمرات الثأر ملتهبة داخل أعماقها؟ وفي بداية الأمر كان أصحاب رسول الله ﷺ بالفعل يشكون في نيتها حيث نرى أبا أيوب خالد بن زيد يطوف بخيمة النبي ﷺ الله عليه حارسا عليه منها. ولكن ما رقم التاريخ بعد ذلك لا يفسر العقل والحواس المادية، لقد اكتفت على حب رسول الله ﷺ وأحبته. ولم ينته حبها لرسول الله ﷺ والإسلام بعد وفاته ﷺ بل كانت وفية لدين الإسلام إلى أن جاءت أجلها رضي الله عنها يقول مصطفى محمود في الأمر:

" وهنا يقف القارئ المتأمل لاهث الأنفاس متسائلا وكيف... كيف استطاع حبها أن يعبر ذلك البحر من الدم وأن يتغلب على يهوديتها وعنصريتها وارتباطها بقومها وأبيها وأهلها الذين سقطوا بسيف

---

١ ابن سعد، الطبقات الكبرى، الجزء الثامن، ص١٢٣

الإسلام ويد محمد... هنا لا تجد جوابا... إلا... محمد... وروحه المشعة الآسرة وقلبه الطيب النبيل... وتلك القوة القاهرة وذلك المدد الإلهي الذي أمد الله به يغزو به قلوب أعدائه فيطهرها من الشر والغل ويستصفي منها أحلى ما فيها... هنا النبوة هي التي تفسر لا العظمة فنحن أمام قدرة غير بشرية"[١]

هنا ينهي العقل رأسها ويمسك المنطق لسانه، فلسنا أمام حادثة نعبره معجزة ونمر به ولا نتحدث عن حادثة شاذة حتى نشكك في صحتها ونمضي به، وليست حادثة واحدة في السيرة النبوية حتى نطلق عليها مصطلح صدفة ونتخلص منه، بل ثمة حادثات عديدة مثل هذه ذكرها المؤرخون دون أدنى الشك فيها، على سبيل المثال: غزوة البدر، موقف النبي يوم الأحد، إسلام الملك النجاشي، صلح الحديبية، وفتح مكة

الحوادث مثل هذه ومواقف النبي ﷺ فيها لا يفسرها العقل ولا يدركها الحس بل هي تقودنا إلى العالم الغيب وتظهر لنا أسباب دون أسباب مادية كما يقول مصطفى محمود:

" وتلك هي اللمسة السحرية وما تفعله في الرجال.. وذلك هو الإشعاع الروحي وما يفعله من نفخ الحياة في الموتى وهو ما لا طاقة لعظيم من عظماء الدنيا أن يعمله بل هو النبي وحده المؤيد بقوى الغيب المحفوف بالعناية المحفوظ بالعصمة والتمكين"[٢]

وثمة أحداث كثيرة استشهد بها مصطفى محمود على موقفه فمثلا: هو

---

١ محمود مصطفى، محمد، ص٥٣

٢ محمود مصطفى، محمد، ص٩٢

يتحدث عن صلح الحديبية، ويتدبر على الشروط التي اتفق عليها سيدنا محمد ﷺ مع قريش في الحديبية، في الوهلة الأولى نلمس أن فيها نفع عظيم لقريش ونوع من التنازل عن المسلين لهم، ولم يفهم الصحابة حكمة هذه المعاهدة في البداية، ولكن المستقبل ما لبث أن يكتشف علي ا لمسلمين عمق هذه السياسة الغيبية التي اتبعها النبي ﷺ. وادعى مصطفى محمود أن هذه المعاهدة هي برهان على بصيرة النبي عليه الصلاة والسلام والوحي الذي يوحى إليه، فالرجال العاديون لا يمكنهم أن يتخذوا خطوة ملموسة كهذه.

ويستدل على موقفه برسالته الخالدة، فقد مرت أكثر من أربعة عشر قرنا ورسالته حية تنتشر في مشارق الأرض ومغاربها، ولم يكن سيدنا محمد ﷺ يحمل رسالة دمار كما فعل الملوك في أيامهم أو كما فعل غزاة المغول والتتار في الماضي، وإنما أتى بحضارة جديدة التي تحمل نورا وحبا وخيرا للجميع.

ووقف مصطفي محمود على القصر الملكي لهرقل فيرى ثقة رسالة النبي ﷺ المطلقة التي لم يرها التاريخ من قبل ولا بعد، كيف كان سيدنا محمدا ﷺ واثقا إلى حد أنه دعا هرقل بدعاية واضحة لا نرى فيها سياسات الملوك الماكرة ولا الغش ولا الطمع، ويطلق على هذه الثقة المطلقة اسم بصيرة النبي ﷺ.

ونراه يستدل على نبوته بأخلاقه النبيلة التي لا يحملها إلا نبيا مرسلا، يذكر معاملته مع أعدائه يوم فتح المكة الذين، وكذبوه، وعذبوه واتباعه، وأخرجوه وأصحابه من ديارهم، وأجبروه على الهجرة، وحاربوه عشرة أعوام كاملة. وهم الذي أمامه بائسين وعاجزين يوم فتح المكة، وكان يمكن له ﷺ أن يأمر بأي تعذيب ما يشاء.... ولكنه قال ﷺ ما حفظه التاريخ بكلمات ذهبية إلى الأبد: **لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء.**

الخاتمة

ظهر لنا من هذه الدراسة أن مصطفى محمود أبرز الخطأ الفادح الذي ارتكبه بعض كتاب السيرة النبوية في عصرنا هذا؛ وهو محاولة تجريد النبي محمد ﷺ من كل ما هو غيبي وما ورائي وتمثيله كعبقري بحت. هو يرى فيه إهانة لشخصيته الشريفة ويعتقد أن الكتابات مثل هذه لا تنفع بالإسلام شيئا بل فيها ضرر كبير للإسلام والمسلمين، وعرض بعض الحادثات من السيرة النبوية ليستدل بها أن نبينا محمد ﷺ لم يكن عبقريا فحسب بل كان نبيا مرسلا مؤيدا بالسند الإلهي والمدد الغيبي، واستشهد من بعض حادثات السيرة النبوية على موقفه واحتج بأن حدوثها لا يتصور بالعقل المادي بل هي تقودنا إلى عالم الغيب.... ونرى أنه نجح في إثبات موقفه نجاحا كاملا، وفاز في تصحيح الخطأ المنهجي الكبير في كتابة السيرة النبوية.

المصادروالمراجع

- القران الكريم
- الأصفهاني أبي نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية بيروت لبنان
- محمود مصطفى، محمد، دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى ١٩٧٥.
- ابن سعد، الطبقات الكبرى، الجزء الثامن، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ٢٠٠١
- شيخاني محمد، هل محمد عبقري مصلح أم نبي مرسل؟ دار قتيبة، دمشق، الطبعة الثانية ١٩٩٥
- Carlyle Thomas, *On Heros, Hero-Worship and the Heroic in History,* London,1841, London james Fraser, regent street.

- Hart Michael, The 100: A Ranking of the most influential persons in History, Hart publishing company, New York, edition2nd.
- دكتورهشام عظمي، https://www.islamweb.net/ar/article/196207/%D8%B9%D8%A8%D9%82%D8%B1%D9%8A%D8%A9-%D9%86%D8%A8%D9%88%D8%A3%D9%85-، ١٦\١٢\٢٠٢٣
- https://islamonline.net/archive/%D9%85%D8%B5%D8%B7%D9%81%D9%89-